

حياة أعظم الرسل

محمد أعظم المصلحين

مَحَمَّدٌ أَكْظَمُ الْمُصْلِحِينَ

كَانَ الْمُصْطَفَى ﷺ أَكْظَمَ مُصْلِحِ
اجْتِمَاعِيٍّ ؛ فَمَبَادِيءُ الْإِصْلَاحِ الَّتِي نَادَى بِهَا
لَمْ تُنْفَذْ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ وَحَدَهَا ، وَلَكِنَّهَا
نُفِذَتْ فِي جَمِيعِ جِهَاتِ الْعَالَمِ ، الَّتِي انْتَشَرَ
فِيهَا الْإِسْلَامُ .

الْقَضَاءُ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ :

كَانَ بِالْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا
يَعْبُدُهَا الْعَرَبُ ، وَيُقَدِّمُونَ لَهَا الْهَدَايَا ،

فَقَضَى عَلَى عِبَادَتِهَا ، وَأَزَالَ الْأَصْنَامَ مِنْهَا ،
وَجَعَلَ النَّاسَ يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَيَعْبُدُونَهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَكَوَّنَ خَيْرَ أُمَّةٍ
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ فِي مُدَّةٍ قَصِيرَةٍ . وَدَافَعَ عَنِ
الْحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ بِإِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ ، وَسِيَاسَةِ
حَكِيمَةٍ ، وَصَبَرَ لَا مِثِيلَ لَهُ . وَاحْتَمَلَ كَثِيرًا
مِنَ الْأَذَى وَالْعَذَابِ فِي سَبِيلِ نَشْرِ
الْإِسْلَامِ .

نَشْرُ الْعَدَالَةِ وَالْمُسَاوَاةِ :

كَانَ الْقَوِيُّ يَتَحَكَّمُ فِي الضَّعِيفِ ،

وَالْغَنَى يُسَيِّطِرُ عَلَى الْفَقِيرِ ، وَالسَّيِّدُ يَقْسُو
عَلَى الْعَبْدِ ، فَنَشَرَ الْحُرِّيَّةَ وَالْعَدَالَهَ
وَالْمُسَاوَاةَ ، وَتَخَلَّصَ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّفْرِقَةِ فِي
الْمُعَامَلَةِ .

وَتَظْهَرُ عَظَمَتُهُ ﷺ فِي وَقُوفِهِ بِجَانِبِ
الْحَقِّ وَالْعَدَالَةِ ، وَدِفَاعِهِ عَنِ الْوَطَنِ
وَالشَّرَفِ ، وَعَطْفِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ
وَالْمُحْتَاجِينَ وَالضُّعَفَاءِ ، وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ
بِأَعْدَائِهِ الَّذِينَ آذَوْهُ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْإِذَاءِ ،
وَمُطَالَبَتِهِ بِتَحْرِيرِ الْعَبِيدِ ، وَإِعْطَائِهِمْ حَقَّهُمْ
فِي الْحُرِّيَّةِ وَفَرْضِ حَقِّ مَعْلُومٍ مِنْ أَمْوَالِ

الْأَغْنِيَاءَ ، لِلْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ .

الْقَضَاءُ عَلَى الْجَهْلِ وَنَشْرُ الْعِلْمِ :

كَانَ الْجَهْلُ مُنْتَشِرًا بَيْنَ الْعَرَبِ ، فَحَارَبَهُ

الْإِسْلَامُ ، وَجَعَلَ التَّعْلِيمَ وَاجِبًا .

وَقَدْ دَعَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ إِلَى التَّعْلِيمِ

وَأَوْجَبَهُ ، فَقَالَ : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى

كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ » . وَقَالَ : « مَنْ أَرَادَ

الدُّنْيَا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعَلَيْهِ

بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَهُمَا مَعًا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ » .

وَقَالَ الرَّسُولُ : « عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ ،

فَإِنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ لِزَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِكُمْ .

إِنْصَافُ الْمَرْأَةِ :

كَانَ الْعَرَبُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ يَقْتُلُونَ الْبَنَاتِ
خَوْفًا مِنَ الْعَارِ ، وَيَدْفِنُونَهُنَّ فِي التُّرَابِ وَهُنَّ
عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ، مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ ارْتَكَبْنَهُ .
فَحَرَّمَ الْإِسْلَامُ ارْتِكَابَ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ
الْقَبِيحَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ ^(١)
سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ . وَكَانُوا يَقْتُلُونَ
أَوْلَادَهُمْ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ
يَقْتُلُ وَلَدَهُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ إِلَى أَنْ

(١) الْبُطْلَةُ الَّتِي كَانَ يَدْفِنُهَا وَالِدُهَا فِي التُّرَابِ وَهِيَ حَيَّةٌ .

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً (١) إِمْلَاقٍ (٢) ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ
وَإِيَّاكُمْ ، إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْئًا (٣) كَبِيرًا ﴾ .

وَبَعْدَ أَنْ أَصَابَ الْمَرْأَةَ مَا أَصَابَهَا مِنْ
الظُّلْمِ وَالِاسْتِعْبَادِ جَاءَ الْإِسْلَامُ ، وَعَامَلَهَا
مُعَامَلَةً كُلَّهَا عَدَالَةً ، وَأَزَالَ عَنْهَا مَا أَصَابَهَا
مِنْ ظُلْمٍ ، وَأَعْطَاهَا حُقُوقَهَا كَامِلَةً ، وَدَافَعَ
عَنْ حَيَاتِهَا وَحُرِّيَّتِهَا وَكَرَامَتِهَا . وَعُومِلَتْ
مُعَامَلَةً إِنْسَانِيَّةً ، كَمَا يُعَامَلُ الْإِنْسَانُ الْحُرُّ
الكَرِيمُ .

فَالْإِسْلَامُ أَنْقَذَ الْمَرْأَةَ مِنْ كُلِّ الْمَظَالِمِ .
وَلَمْ تُعْطَ الْمَرْأَةُ حَقَّهَا إِلَّا فِي الْإِسْلَامِ .
فَأُعْطِيَتْ الْحَقُّ فِي الْحَيَاةِ ، وَالْمِيرَاثِ ،
وَالتَّمَلُّكِ ، وَالتَّعَلُّمِ مُنْذُ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا
تَقْرِيًّا . وَقَدْ وَقَفَ الرَّسُولُ بِجَانِبِ الْمَرْأَةِ ،
وَدَافَعَ عَنْهَا ، فَأَيَّدَتِ الْمَرْأَةُ الدَّعْوَةَ إِلَى
الْإِسْلَامِ بِكُلِّ مَا فِي وَسْعِهَا ، وَاشْتَرَكَتْ مَعَ
الرِّجَالِ فِي الْحَرْبِ بِسَيْفِهَا ، وَشَجَّعَتِ
الْمُحَارِبِينَ ، وَعَالَجَتِ الْجَرْحَى ، وَرَبَطَتِ
جِرَاحَهُمْ ، وَوَأَسَتْ الْمَرْضَى ، وَقَدَّمَتْ لَهُمُ
الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ .

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَ :
« يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِصَحَابَتِي
(صُحْبَتِي) .

قَالَ : (أُمُّكَ .

قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟

قَالَ : أُمُّكَ .

قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟

قَالَ : أُمُّكَ .

قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟

قَالَ : أَبُوكَ .

فَلِلَّامِّ مَنَزِلَةً كَبِيرَةً فِي الْإِسْلَامِ ، وَهِيَ

مُفَضَّلَةٌ عَلَى الْأَبِ .

الْعَطْفُ عَلَى الْيَتَامَى وَالتَّفَكِيرُ فِيهِمْ :

كَانَ الْيَتِيمُ (مَنْ مَاتَ أَبُوهُ) يُعَامَلُ
مُعَامَلَةً قَاسِيَةً ، وَلَا يَأْخُذُ مِنَ الْمَالِ الَّذِي
تَرَكَ لَهُ أَبُوهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ . وَكَانَ الْوَصِيُّ
عَلَى الْيَتِيمِ يَأْكُلُ مَالَهُ ، وَلَا يَخَافُ اللَّهَ .
وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَتْرُكُهُ بِغَيْرِ تَعْلِيمٍ ، وَيُبَدِّدُ
أَمْوَالَهُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى الرَّسُولِ كَثِيرًا مِنَ
الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ لِمُعَامَلَةِ الْيَتِيمِ مُعَامَلَةً
إِنْسَانِيَّةً .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ،

وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا
 أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا (ذَنْبًا)
 كَبِيرًا ﴿١﴾ أَيُّ وَأَعْطُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ كَامِلَةً
 عِنْدَ بُلُوغِهِمْ سِنَ الرُّشْدِ (١) . وَلَا تَأْخُذُوا
 الطَّيِّبَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَأَرْضِهِمْ ،
 وَتَضَعُوا مَكَانَهُ الرَّدِيءَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ
 وَأَرْضِكُمْ . وَلَا تَأْخُذُوا أَمْوَالَهُمْ لِتَضُمَّوهَا
 إِلَى أَمْوَالِكُمْ . إِنْ أَخَذَهَا كَانَ ذَنْبًا كَبِيرًا ،
 وَإِثْمًا (٢) عَظِيمًا .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ

(١) سِنُ الرُّشْدِ : إِحْدَى وَعِشْرُونَ سَنَةً . (٢) ذَنْبًا .

تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ،
فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . إِنَّ الَّذِينَ
يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ .
وَالْمَعْنَى : يَجِبُ عَلَى الْأَوْصِيَاءِ أَنْ يُقَدِّرُوا
أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ مَاتُوا ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْيَتَامَى
الَّذِينَ تَحْتَ وَصَايَتِهِمْ هُمُ أَبْنَاؤُهُمْ ، وَتَحْتَ
وَصَايَةِ غَيْرِهِمْ ، فَيَعَامِلُوهُمْ بِالشَّفَقَةِ
وَالرَّحْمَةِ الَّتِي يُحِبُّونَهَا لِأَوْلَادِهِمْ ، وَلْيَقُولُوا
لَهُمْ فِي مُحَادَثَتِهِمْ وَتَرْبِيَّتِهِمْ قَوْلًا فِيهِ جَبَرٌ

لِخَاطِرِهِمْ ، وَيَسْتَقْبِلُوهُمْ بِحُسْنِ التَّرْحِيبِ ،
حَتَّى يُخَفَّفُوا عَنْهُمْ مُصِيبَةَ فَقْدِ آبَائِهِمْ .
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا
بِغَيْرِ حَقٍّ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَدْخُلُونَ نَارًا شَدِيدَةً يُحْتَرِقُونَ فِيهَا .
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ . أَيْ وَلَا
تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
مِنْ غَيْرِهَا ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِحِفْظِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ ،
حَتَّى يَبْلُغَ الرُّشْدَ ، وَيَصِلَ إِلَى تَمَامِ عَقْلِهِ ،

وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ .

وَصِيَّةُ الرَّسُولِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ :

أَوْصَى الرَّسُولُ أُمَّتَهُ وَصِيَّةً أَوْصَاهُ اللَّهُ
بِهَا . فَقَالَ : « أَوْصَانِي رَبِّي بِتَسْعِ هِيَ :
الْإِحْلَاصُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْعَدْلُ فِي
الرِّضَا وَالْغَضَبِ ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى
وَالْفَقْرِ ، وَأَنْ أَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَنِي ، وَأَعْطِيَ
مَنْ حَرَمَنِي ، وَأَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي ، وَأَنْ يَكُونَ
صَمَتِي فِكْرًا ، وَنُطْقِي ذِكْرًا ، وَنَظْرِي
عِبْرًا » .

وَفِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْعَظِيمَةِ تَتَضَحُّ (تُظْهَرُ)
الْأَخْلَاقُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكَرِيمَةُ ، فَقَدْ أَوْصَى
اللَّهُ رَسُولَهُ الْمُصْطَفَى بِتِسْعِ صِفَاتٍ ،
وَهِيَ :

« الْإِخْلَاصُ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ ، فِي
الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَالْعَدَالَةُ فِي حَالَتِي الرِّضَا
وَالْغَضَبِ ، فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ . وَالْقَصْدُ
وَالْإِعْتِدَالُ ، وَالْإِقْتِصَادُ وَالتَّوَسُّطُ فِي
النَّفَقَةِ ، فِي الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ . وَالْعَفْوُ عَمَّنْ
ظَلَمَكَ . وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَكَ . وَصِلَةُ مَنْ

قَطَعَكَ . وَالتَّفَكِيرُ فِي خَالِقِ الْعَالَمِ وَقَتَ
صَمَتِكَ . وَذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ نُطْقِكَ وَكَلَامِكَ .
وَنَظْرُكَ فِيهِ عِظَاتٌ وَعِبَرٌ لِّغَيْرِكَ .